حين يذوب الليل

قصة بقلم
يوسف شرورو

هبط الجسد فوق اسفلت الشارع المبتل . سمعت صوت ارتطام، ثم احسست ببرودة منعشة ، ولامس جبيني الحار مطر الارض .

الاصوات تختلط كمياه نهر ، قوية ومميزة ومسموعة :

ـ اقذفوا به الى الخارج. لن يكون له وجود في الداخل .انه يضرب ويهدم .

عيناي سودوان تقرآن اسم مطعم مقابل ،لويجياني ، الاسم ايطالي، الدنيا ليلا مبتلّ بزخات المطر ، سوهو ضيق الشوارع والازقة ، عيناي تتلامس الرموش فيهما ، لم ار قامة شرطي الليل. الاضواء تحيل المكان الى بقع من شمس ، والآلهة تهبط بطلقات ثم تموت .الطيور تشق طيات الهواء . المطر في السماء وعلى الارض . بقع الشمس تنكسر ويعم ظلام وصمت . المطر في داخلي يتوغل بسهولة ، انا في شارع ضيق وصغير اسمه « انكلي ستريت » . طلقات القناصة تصطاد اربعة من الرجال ، ثم يقع الخامس . الآلهة تموت صارخة . وعيون العالم تقف مشدوهة ، فقد تهدمت جسور الاسطورة ، ونام سكان المدن والقرى والخيام ، وشاهدوا الرجال وهم يعيدون مياه الانهار الى المجرى. الضباب صامت ، والليل صامت ، ثم تقرع اجراس سيارات الاسعاف، ولكن الآلهة ما زالت ميتة .

وقف شهاب بجانب جسدي الممدد على الارض ، يرتدي معطفا ثقيلا صنع من جلد خروف ابيض ، ثملا ومترنحا ، طويلا وعريضا كجذع شجرة يابسة . سمعته يقول ورائحة الجعة تزفر من فمه :

ـ قم ، فالليل في نهايته ، والطريق الى البيت ما زالت طويلة. كم الساعة الان ؟

حاولت ان اصوب عيني نحو ساعتي ، العقارب الثلاثة تبرق كنجمة باهتة ، لم استطع تحديد الزمن. الزمن في عقلي يدور بغضب، وشهاب يقعي بجانبي محاولا ان يقرأ عقارب الساعة اصرخ وهو يقف من جديد :

ـ الساعة الثالثة صباحا . قم يا وطن .

فرش ذراعه اليمنى باتجاهي ، تعلقت ثم نهضت . اتكأت على جسده ، وسرنا نبحث عن سيارة عابرة في شارع « أكسفوردسيركس » ورائحة الجعة تتمدد قرب فمه . المحلات التجارية مضاءة . ارض المطار كانت مضاءة ايضا . عابدو الآلهة يصبغون وجوههم بالخوف والكآبة ، ولكن الآلهة ما زالت ميتة .

لم ارغب بمغادرة غرفتي في بداية المساء . جلست اقرأ كتابا ضخما صفحاته تزيد على نصف الالف ، عنوانه غريب ومخيف، اسمه « المبهم » . توقفت طويلا عند كل صفحة ، ثم رن الهاتف في ممر البيت لدقائق طويلة وتوقف فجأة .

سمعت صوتا نسائيا اعرفه ، يقول بادب :

ـ انتظر حتى استدعيه من غرفته ان كان هناك .

تخيلت سماعة الهاتف تتأرجح كالمشنوق . عوى المطر في داخلي، وطات الطحالب رقيقة في عيني ، ولم أعد الى « المبهم » ، احدالرجال فجر الموت بنفسه وبالآخرين ، وتدفق النبع صافيا يغني، الخيانة تتصلب كالطاعون ، ونام الصغار في القرى والاكواخ يحلمون بعناق الموت.

قدمان تتوقفان بجانب غرفتي ، وتأتي الطرقات خفيفة وناعمة :

ـ مستر وطن ، هناك من يريد ان يحدثك على الهاتف .

اقول من داخل الغرفة الواسعة :

ـ شكرا يا ماري .

انزل الدرجات المغطاة بسجاد احمر . اقول بصوت ناعس ايقاعه:

ـ هالو ، وطن يتحدث .

يتدفق صوت شهاب ، عبوسا وجامحا :

ـ أين انت ؟ ماذا تفعل ؟ اشعر بالملل فقد سئمت غرفة المستشفى اريد ان اراك يا وطن ، فالليل يتجمع كالبرك في نفسي .

قلت بصوت حلقاته متباعدة :

ـ اقرأ كتابا جديدا لكولن ويلسون اسمه « المبهم » ،لا اشعر برؤية احد ، المطر في داخلي يعوي كالكلاب الشرسة ، ما زلت فرحا، فالرجال غيروا لون ايلول اللعين . ايلول لم يعد اسود ، فقد اصبح اخضر واحمر .

ـ لهذا السبب اود رؤيتك ، فالضباب ينبح كالبحر . اترك « المبهم » وعد الى الواقع ، احترقت معابدهم . انا فرح ايضا يا وطن، فالموج ينظف الشطئان . ايلول اسود واحمر الان .

تسالت بصوت استيقظت كلماته :

ـ ماذا تعني ؟

ـ سأراك في السادسة تماما بمحطة « بيكاديلي سيركس » بجانب بائع الصحف المسائية .

ـ اتفقنا .

عدت الى الغرفة « كولن ويلسون يتحدث بهدوء ويمسح نظارته الطبية . اعتذرت منه ، ودرت في الغرفة كذبابة جريحة . الوجوه في المدن العربية تختفل ، والمباريات الاولمبية ما زالت مستمرة .اريد ان احتفل للمرة الالف ، اخذت زجاجة الحليب وجرعت منها جرعات

كبيرة . كنا نشرب حليب البودرة ، ونقف طوابير ذليلة مرتعشة امام مستودعات التوزيع ، يصرخ فينا الموظف ، فنعتذر منه بلطف . كنت صغيرا وغبيا ، فقد كنت واحدا من الطوابير الصامتة ولكن الآلهة ما زالت ميتة .

عشت في هذه الغرفة منذ اكثر من عامين ، ارصد الحركات واكتب الرسائل الطويلة الجافة العاطفة ، استقبل القادمين في المطار واحجز الغرف في المستشفيات .

قالوا لي قبل ان اسافر :

ـ في القلب تستمر النبضات ، والانسان نبضة قلب حين يؤمن بعمل منظم عنيف .

اردت ان ابتسم لهم ، اعانقهم، ارى الدموع تجري على وجوههم، في لحظات الفراق ، ابتسمت طويلا ، لم يبتسم لي وجه واحد .العيون كبيرة وصافية .

قال وجه وهو يقترب من وجهي :

ـ لا تكن مبتسما دوما ، فالابتسامة الحقيقية تعني الثقة ، لا تثق بكل انسان تبتسم في وجهه عينان .

الحزم يعلو وجهي كالنذير . جاءت برقية اطارها احمر ، الصقت عليها ورقة صغيرة تحمل كلمة ((مستعجل)) فضضتها وقرأت :

ـ شهاب يصل يوم الجمعة القادم ، رقم الرحلة ميدل ايست١٠١ احجز غرفة في مستشفى . تهشم عضوه التناسلي وخصيتاه .

احمرت عيناي من الكلمات وتخيلت الرجل فيه صامتا لا يصرخ. كان يصرخ فينا في معسكر التدريب ، فقد كان مدربا نخافه ونحبه ، تعلمت منه كيف اعالج المتفجرات الدقيقة ، وكيف امرق خلال الاسلاك الشائكة ، وكيف اشم متفجرا وثابا لا تراه العين.زحف امامنا فوق الشوك والاراضي الحجرية ، واكل معنا الثعابين والحشائش البرية . قاد ثلاثة من فصيلنا بحذر وعبر معهم الى الداخل وضرب ، ثم عاد الى القاعدة دون ان يولول خلفه رشاش سريع الطلقات . اصوات المراعي الخضراء تزمجر في عقله ، يفتخر بانه فلاح ، كان يرعى بالخرفان قرب جبال صفد ، وحين هرب مع عائلته الى دمشق ، عمل في التجارة والتحق بالدراسات المسائية. وجهه ازرق العينين كانه ولد في لحظات الفجر الاولى .

حملته سيارة اسعاف بيضاء سريعة ، حطت به في ((لندن كلينك)) وضعوه على نقالة تحملها اربع عجلات . لم يعرف وجهي ، ولم يعرف اسمي . اغلقت غرفة العمليات عليه، واضاء الضوء الاحمر ، بقيت اراقبه لفترة تزيد على الساعتين ، ثم خبا اللون الاحمر في الضوء وخرج الدكتور روبنسون ، وعلى وجهه تزهر ابتسامات ملونة. وثقت به، ثم حاولت ان اسأل ، نظر الي للحظات ، واخيرا قال :

ـ سوف يعيش . اوقفت النزيف ، ورقعت الخصيتين والجزء المتبقي من عضوه . اردت ان اقول :

ـ شكرا يا دكتور .

ولكن الدكتور اختفى ، درت في الممرات الواسعة النظيفة ، جاءت ممرضة ايرلندية شقراء ، لتقول بادب احبه :

ـ لا تستطيع ان تراه هذا المساء . ارجو ان تترك رقم تلفونك. لا تخف . انه في حالة جيدة وسوف يعيش .

ذهبت لارسل برقية ، وقفت طويلا في مكتب البريد الليلي ، اختار الكلمات واغير فيها . قذفت بالبرقية امام عيني الموظف الهندي ، قرأ العنوان وابتسم في وجهي بعفوية . سأل :

ـ عادية ام مستعجلة يا سيدي ؟

قلت دون ان ابتسم له :

ـ مستعجلة .

دفعت جنيهين وخرجت استقبل الناس بعيوني . الناس في بلادي يضحكون ويلعبون ، ثم يتألمون حين يفكرون . السيدة التي اعيش في بيتها ملحدة ، تقدم لي الطعام وتحبني كام ، طلبت مني أن لا أناديها بالسيدة مور . سألت عن اسمها الاول وانا لا انظر الى عينيها . سمعت رعشة خفيفة في مقاطع حروفها وهي تقول :

ـ ماري . فقط ماري .

ابتسمت ثم تذكرت نصيحة الرفاق ، فالجمت الابتسامة التي اربكتني . ماري تقف امامي ، السيدة مور تنظر مباشرة وبعمق الى عيني ، تركتني وذهبت الى المطبخ ، ستأتي بعد قليل حاملة طعامي الانكليزي الشهير ، المكون من البيض والسجق ، والخبز والمرملات ، ستدعوني الى غرفة الجلوس ، وتسمح لي أن اتفرج على التلفزيون . بائع الحليب يأتي كل صباح ، يحدثني عن الفتيات ، والسراويل الضيقة، ويبتسم ابتسامة حليبية لي ، انا الذي اقضي وقتي متفرجا وراصدا للاحداث والناس ، أطل من نافذتي العريضة الى العالم الذي حصر وجمع في لندن ، وافكر بالناس الذين يتجمعون في الغرف والبيوت الكبيرة ، ينتقدون وهم جالسون ، ويلعنون الرجال ويشككون في اعمالهم . كلمات الدكتور روبنسون تنزف وتدور وتتشابك كخطوط الزمن :

ـ سوف يعيش . أوقفت النزيف ، ورقعت الخصيتين والجزء المتبقي من عضوه .

أسمع العويل في نفسي كلما فكرت في شهاب . العويل صامت . العويل صاخب . لندن مقيتة وكبيرة ، وهو ينام في غرفة مستشفى جدرانه بيضاء ، ومعطفه المصنوع من جلد الخروف الابيض يلازمه كرفيق .

قال لي حين قابلته في محطة النفق بيكاديلي سيركس :

ـ هل تفهم ما الذي يقوله بائع الصحف المسائية ؟

ضحكت ولم أقل شيئا . علق معطفه فوق كتفيه ، وسرح شعره الاشقر الخفيف الى الخلف . شعرت بانه يعيش أزمة صامتة ، خفت ان أراها تثور . الزمن يقف به ، والمستقبل لن يحمل له شيئا .

ساحة البيكاديلي تشع بالاضواء واعلانات النيون .

قال بصوته العبوس الجامح :

ـ دعنا نجد مقهى .

ذهبت به الى جيرالد ستريت . وجه الجرسون ذابل وساكت كورقة خريف . أردت ان اقول شيئا ، فلم أجد الكلمات . طلقات الرصاص انهمرت كالمطر . أرض المطار خالية من الوعود . تلفت حولي أبحث عن شيء غير معروف . عيون الناس تدور بقلق ، بغضب ، عرفت العيون ، بدأت تنظر بحب ، نهاية الآلهة الميتة ، في زاوية المقهى ، امرأة في الاربعين تنبت على وجهها جاذبية امرأة حقيقية ، خفت أن أتابع النظر ، ذكرتني بماري أو السيدة مور ، أفكر أحيانا بالنوم في سريرها الدافيء ، وحين أهم باتخاذ الخطوة الاولى ، أتراجع ، ثم أنسحب الى غرفتي الواسعة في بيتها ، أسمع صوت قدميها في الممر الطويل ، على الدرجات المغطاة بالسجاد الاحمر ، بجانب باب غرفتي ، أتخيلها عارية تنتفض وأنا أقطف الزهر من على ثدييها .

التلفزيون الملون يظهر المرأة الروسية ، رئيسة الوزراء ، تتحدث عن الآلهة الميتة وتنتف الشعيرات النابتة فوق شفتها العليا . السيدة مور صرخت باتجاه شاشة التلفزيون :

ـ اخرسي أيتها المستوطنة .

ثم التفتت نحوي وتابعت :

ـ تعتقد انها الملكة فكتوريا . العالم بدأ يعي .

قال شهاب وهو يقبض على ذراعي :

ـ بماذا تفكر ؟

ارتبكت من مفاجأة السؤال . قلت وانا أستعيد وجودي معه :

ـ في الايام القادمة .

ـ انت تكذب . كنت تفكر بي .

ثلاثة من الرجال ما زالوا احياء ، قصصت صورهم من صحيفة يوم الاحد ، وبدأت أرسل لهم التحية .

قالت السيدة مور او ماري حين شاهدت صورهم :

ـ الوحيدون الذين يستحقون الميداليات الذهبية .

وضع الجرسون فنجانين من القهوة السوداء أمامنا ، تركت عشرين بنسا على الطاولة ، أخذ النقود دون ان يشكرني .

قال شهاب وهو يذيب السكر في قهوته :

ـ الضبـــاب ينبح كالبحر ، احترقت معابـدهم ، فالموج ينظف الشطئان . أيلول أسود وأحمر الآن . الرجـال يعملون والزمن لن يقف ولا ينتهي ، وأنا أفكر في عـــذاباتي الشخصية ، عشت في المستشفى اكثر من اسبوعين ، فشلت العمليات الثلاث ، أعضاء الرجال تبرق في العتمة ، في الغرف المزينة بأضواء حمراء ، وأنا ماتت كبرياء الرجل فيّ ، قررت أن اعود يوم الأحد القادم ، العمـل في القواعـد ينسيني عذاباتي الشخصية ، فالضباب ينبح بي لان أرجع .

قلت وأنا أتذكر كلمات سمعتها أو قرأتها :

ـ أين يقف الرجال الحقيقيون في زحمـــة الطريق ؟ ينزوون ، يفكرون ، ينظمون الضوضاء والزحام ، ثم تعود الكبرياء . لا علاقـات عاطفية شخصية في الثورة .

ـ اسمع يا وطن ، فقد توقفت عن التفكير بعـــذاباتي حين عرفت قصة الرجل الذي فجر الموت بنفسه وبالآخرين .

ـ آسف يا شهاب . كلماتك ذكرتني بثرثرة الآخرين الذين يتحدثون ويتحدثون ، ويرشون رذاذ لعابهم ، وتلتقط الصـــور الملونة لهم ، وهم يرتدون الثياب المبرقعة . هؤلاء يثقلون حمولة السفينة . ان نعمـــل بصمت ، معناه ان نساعد سفينة الثورة على الابحار .

ـ انت لعين يا وطن ، أنا لا أثرثر كالآخرين فقد حدثتك بما أشعر .

دعنا نخرج من هنا ، فالمقهى كئيب كوجه التعاسة .

سألته ونحن نسير باتجاه « ليستر سكوير » :

ـ هل أنهي عملية الحجز لسفرك يوم الاحد القادم ؟

ـ نعم أرجوك ، فقد سمح لي الدكتور روبنسون بالسفر .

المساء يتوغل في الميدان والعويل صامت ، فقد عاد شهاب ينـزع الايام التي تتعاقب كوجوه اناس ، القـــوارب تنجرف بمياه الانهار ، وينهمر المطر ويستمر انهمـــــاره ، فالارض عطشى ، والدماء وحدها لا ترويها . دور السينما في ليستر سكوير يصطف قرب ابوابها الناس في صفوف منتظمة . كنا صامتين كقبرين . الايام تتعاقب وتحمل عنفا ، فالطائرات نفاثة وعنيفة ، والسيارات سريعة . الناس لا يتعاملون بالود، لا يحبون بعضهم . كان أبي يقول في جلساته :

ـ من أحبه أعطيه حبة عيني .

أحب شهاب وأحترمه ، فقد علمني الكثير . سألته كأنني أعقـد صلحا منفردا :

ـ هل ترغب برؤية « مارلون براندو » في فيلم عن عصابة المافيا ؟

ـ أوافق ، على شرط أن تدفع أنت ، فأنا لا املك نقودا .

انتظمنا في الطابور الطويل المتجه نحو باب سينما « الامبير » . أحمل في جيبي خمسة جنيهات استرلينية فقط . الفرح يطرد الالم ، ثمن التذكرة اكثر من جنيه واحد ، شهـــاب يصفر لحن « راجعون » لفيروز ، وتتمدد الكبرياء في قامته . العويل صامت ، والآلهة احتفلوا بموتها في قرية الالعاب ، وجوههم كانت واهنة وممتعضة ، عزفـــوا الاناشيد الوطنية الكثيرة . شهاب يقف طويلا وعريضا ويمسح الميدان بعينين صافيتين زرقاوين . تجنبت ان انظر الى سيقان الفتيات المنجرفة أمامي ، الارداف مكتنزة وتهتز كشراع قارب صغير . شهاب لا ينظر الى النساء ، ففي داخله صمام . كنت أعرف بأن له صديقة تعمل ممرضة في مستشفى عربي ، يحمل صورتها في محفظته ، قال مرة وهو ينظر الى الصورة :

ـ هذا هو الحاجب .

تساءلت بهمس :

ـ هل يتزوج الرجال ان لم تبرق أعضاؤهم في عتمة الليل ؟

وصلت أذني أصوات تقول :

ـ وطن ، وطن ، وطن ..

التفت ، لارى ستيف وتينا ومعهما آخر بشعر طويل يسترسل على كتفيـــه .

قال ستيف زميلي في كلية « لندن بولوتكنك » :

ـ هذا جان صديقي ، انه يعمل في صحيفة « الفارديان » .

قلت وأنا أمد يدي مصافحا :

ـ هالو جان .

قدمتهم الى شهاب ، صافحهم بحرارة ، ثم قال بانكليزية صحيحة :

ـ تشرفنا .

سألني ستيف : ـ لماذا لم تحضر دروس هذا اليوم ؟ سأل عنك مدرس اللغة العبرية . هل ستشاهد هـــــذا الفيلم ؟ تعال معنا أنت وصديقك ، سنذهب الى ناد ليلي اسمه « لافالبون » .

التفت الى شهاب ، أشار برأسه موافقا ، تركنا الطابور وسرنـــا باتجاه شارع « فيتزجرالد أفينيو » ، تينا اقتربت من شهاب وسارت بجانبه . كانت في الخامسة والعشرين ، ارادت ان تبدأ حياتها ممثلة مسرحية ، ففشلت ، فكرت في أن تصبح عارضة للازياء ، وفشلت مـن جديد . جاءت الى كليتنا والتحقت بدراسة اللغات ، يشتهيها معظـم طلبة الكلية ، فقد كانت جذابة وجريئة تنظر مباشرة وبعمق في العينين. لم ينم معها واحد من الكلية . قالت لنا مرة :

ـ حين أجد الرجل الذي أشتهيه ، فساخبره بهذا أمام الجميع .

شهاب يتحدث الانكليزية بلهجة عربية ، عمل مدرسا في قرية على الحدود الاردنية ـ السورية ، بعد ان حصل على بكالوريوس الكيمياء ، الزمن الذي يدمر هو الزمن الذي يبني ، الرجال فوق ارض المطـــار أوقفوا العالم لساعات ، يعذبني الزمن والتجربة ، يشرق العالم فجأة ولايام ، أقترب من التجربة . قال مدرس اللغة الانكليزية وهو يشرح لنا قصيدة لاليوت :

ـ ان التجربة الماضية التي يعيدها المعنى للحياة ، ليست تجربة حياة واحدة فحسب ، بل أجيال عديدة .

ستيف قطع التجربة وبدأ يتحدث عن مؤتمر حزب الاحرار ، ابوه يعمل في صناعة الكتب ، ويختار الكتب اليسارية لنشرها .

قالت الفتاة الجالسة في مدخل النادي :

ـ هل أنتم أعضاء ؟

تقدم جان ذو الشعر الطويل وقال بلهجة اهل الشمال :

ـ أنا عضو .

قدمت له دفترا طويلا ، وقع اسمه ثم احتوانا المكان . الموسيقى تنبعث صاخبة ، والفتيات يتكومن كأكوام البطيخ في اسواق عمـان . أبي افتتح مطعما كبيرا في عمان ، اصبح غنيا ، يملك سيارة اميركيـة مكيفة الهواء ، أرسلني لادرس آداب اللغة الانكليزية بالجامعة الاميركية في القاهرة ، وقبل مغادرتي طلب مني الشباب ان انتسب الى كليـــة او جامعة في لندن ، لامنح اقامة سنوية ، ولاغطي عملية بقائي .

انبهر شهاب بالمكان وقال لي بصوت تجلت فيه النشوة :

ـ هذا هو المكان . أريد ان انتشي هذا المساء ، لا تحد من البهجة.

ربّت بيدي على كتفه ، معطفه ثقيل ورائحته تذكرني بالقاعـــدة رقم ٧٠٧ . شاب اسود كالظلام يحتضن فتاة طويلة ويضغط على ثديها ، فتاتان تتهامسان وتشيران الى رجلين ، صوت « شيرلي باسيه » يغطي الارض والجدران والوجوه ، فتتوجع ، أتوجع أنا ، الشباب في القواعد يحتسون شوربة العدس ، ويدخنون لفائف التبغ الوطنية ، ويقتـــلون برصاص عدو ، وبرصاص أخوة ، أبي يبتسم للضباط الكبار ويدعـوهم

الى بيته . التفاح في الصناديق ناضج أحمر ، تفاحـــة عطبة تتعلق بالصناديق . حزب الاحرار يقف بجانب الارض ، ينتقد الخيانة المتصلبة كالطاعون فوق ارض المطار ، الآلهة تهبط بطلقات ثم تموت . رئيســـة الوزراء ، الملكة فكتوريا تشرب البراندي في أواخر الليل ، الناس في الشوارع يتغيرون ويبتسمون ، فالموج يغمر الوجوه ، ويحجب الضباب.

وجدنا زاوية بعيدة عن الموسيقى ، الاضواء خافتة ، شهاب يحمي ظهره بجدار ، وتينا ما زالت تلازمه كمعطفه المصنوع من جلد الخروف.

سمعتها تسأل وهي تقترب بوجهها من وجه شهاب :

ـ كم عمرك ؟

ـ في الثالثة والثلاثين .

ـ وعمر صديقك وطن ؟

ـ في السادسة والعشرين ، ما زال فتيا نضرا .

ـ أحب الرجال الذين ينبت شعرهم الرمادي في سوالفهم .

ضحكت بصوت عال ، وضحك شهاب المتألق كنجوم السماء ، ثم لامس بيده الكبيرة خد الفتاة ، التفت اليّ ليقول بصوت ضاحك :

ـ انها ناعمة يا وطن وحارة . لا تدري ان البريق خامد .

احتجت بغضب واضح وهي تقول :

ـ لا تتكلما باللغة العربية .

تابع شهاب كلماته :

ـ انها تشبه القطة المتوحشة حـــين تغضب ، تذكرني بسوزان هيوارد .

اقتربت منه وهمست ، ابتسم صاحب معطف الخروف ، مسحت المكان بعينيّ ، أحضرت انجرسونة أقداح الجعة المثلجة .

سألني جان : ـ هل تقرأ صحيفة الغارديان ؟

ـ كنت أعتقد انها الصحيفة الجيدة الوحيدة في بريطانيا ، ولكن في الفترة الاخيرة ، بت أشم فيها رائحة عدوة لنا .

هز رأسه وهو يقول :

ـ هذا مهم ، تابع أرجوك .

قذف شهاب بجملة :

ـ نحن نحترم دفيد هيس فقط ، هل تعرفه ؟ انه يغطي أخبـــار المنطقة ويقيم في بيروت .

قال جان بصوت صديق :

ـ قد أنقل الى بيروت في الايام القادمة ، سآتي لزيارتكم .

ـ أهلا بك ، خذ العنوان من وطن .

قال ستيف موجها كلماته الينا :

ـ هل فكرتم في معنى ما تقومون به الآن ؟ انكم تغيرون وجه الارض هناك ، المستقبل باقة ورود ستنالونها ، أنا أعرف اننا سبب المرض ، أنتم تجابهونه باستمرار، ونحن في حزب الاحرار الشباب ندفع قواربكم المحملة نحو المجرى . الايام والساعات تتقارب في وحدة اليسار ، وانتم تسافرون الى الامام ولا تهربون .

قال شهاب بكلمات انكليزية واضحة :

ـ المستقبل انشودة بهتت ، كلمة تتحرك على الشفاه ، سقطت في المرض ، نحن نعمل لهذه الايام ، فالحاضر هو الذي يقرر . المستقبل كلمة يجب ان نعرفها ، حتى لا نخطىء في قواعد اللغة ، لقد قرأت عن مؤتمركم ، وعن اقتراح الاحرار الشبـــاب ، انتم تدفعون قواربنا نحو المياه ، ولكن الكبار في حزبكم يعملون على اغراقها .

تينا تتصدر المكان لتقول :

ـ لقد تحرك قطار الثورة . المسافرون قلة ، سيقف في المحطات ويأتي ركاب آخرون . القطار انطلق .

أقداح الجعة تتعاقب امامنا ، وشهاب يحتسي بسرعة ويزداد تألقا.

نظر الى تينا وقال :

ـ في تلك البلدة البعيدة في قلب بلادنا تعيش فتاة ، هذه الفتاة كانت لا تغلق عينيها الا وتحت جفنيها حلم أتجسد فيه . أنت تذكرينني بهذه الفتاة .

ضحكت بنشوة ، تغير الحديث الجدي ، اقتربت منه وقـــالت بصوت مرتفع :

ـ أريد أن آتي معك في نهاية الليل .

العويل صامت ، والمستقبل انشـــودة بهتت ، البريق خامد . ضحكات شهاب الناضجة تحلق في المكان ، الجعة توغلت الى رأســـه الاشقر ، الكلمات تتراقص فوق لسانه ، عندما كان يعبر الى الداخل ، كان يشعر بالفرح ، لم أره مكسوا بالخـــوف ، علمنا أن لا نخاف ، فالخوف غباء .

أذكر انه قال لنا في معسكر التدريب :

ـ مرة أردت أن أضحك بصوت بشع مرتفع ، فبكيت بشكـــل بشـــع .

أخاف عليه ان يبكي . ستيف يستأذن ويذهب باحثا عن فريسة في ثياب فتاة . النادي الغابة يعج بالعلامات ، كل علامة تبحث عـــن صياد . الآلهة ما زالت ميتة ، والقطار يهـــدر ، والسفينة هادرة ، والعيون تراقب الخطوط الحديدية ، وخط المياه . الظلام يحل وتنبعث الطلقات ، لحظات ، ثم يتأنه الرجال وتموت الآلهة صارخة من الموت .

سمعت شهاب يقول لتينا :

ـ جئت الى لندن لاقوم بعملية تجميل لانفي الكبير ، انظري اليه، انه يبدو صغيرا ، أنا أحيا الحياة الآن ، أريد أن احياها ، ولا اريـد ان افكر فيها او اذكرها . فتاتي في تلك البلدة البعيدة ستضع سلكـــا رفيعا من الذهب الاصفر ليطوق اصبعها . عيناها ستلمعان بفرح لانسان آخر ، فالماضي انقضى ، والحاضر أحياه ، والمستقبل باقة جفت قبل ان تذبل .

الضحكات ارتفعت ، جان اشترك في عملية الاستماع ، وجـــوه اخرى قريبة كانت تستمع وتتهامس ثم تضحك .

مرة قال لنا ونحن نعبر الى الضفة الاخرى :

ـ حلمت كثيرا حتى باتت حياتي احلاما ، أردت ان اعيش الواقع فعشت الحلم ، أنا حين اقف فوق تراب هذه الارض ، اقف على الواقع.

تينا تقبله في شفتيه بشبق ، يريد ان يوقف عويل الرمح المكسور فيه ، يقبض بيديه على رأسها ، ينتزع شفتيه ، يجرع الجعة ، يغب منها ، الوجوه تراقبه ، تراقبني ، الموسيقى مجنـــونة ومسعورة ، الاضواء تبهر العين ، تعميها ، تتفير بسرعة . أقداح الجعة تصب في المجرى . خمسة جنيهات في جيبي . جان يهمس بأدب أحببته : ـ صديقك يشرب بشراهة وبسرعة .

أردت أن ابتسم ، الابتسامة ثقة ، جان لم اعرفه بعد ، وجـــوه اخرى تضحك ويتعالى الضحك ، تينا تلهث كالمسعورة ، العتمة تبحر بالخيال ، الحلمتان في ثدييها تنتصبان ، وهو يتابع في تدفق الكلمات، الدنيا ليل حار ، والمعطف ما زال معلقا فوق كتفيه ، أردت ان اطلب منه ان يتوقف ، فالليل طويل ، والجعة لن تنفد من المكان ، تذكرت :

ـ هذا هو المكان . اريد ان أنتشي هذا المساء ، لا تحد مـــن البهجة .

أحسد الطفل الذي يبكي ، شهاب بمعزل عن الزمن ، وتينا يرتعش الشعر في بدنها الاملس ، فجأة دوى صوت المعطف الثقيل المصنـــوع من جلد الخروف :

ـ الارستقراطيون هم رجال المال ، اصحاب البنوك ، اصحـــاب البنايات والنوادي الليلية والثورات المزيفة .

وبسرعة أخرج جان ورقة وبدأ يكتب بطريقة الاختزال .

سألته : ـ ماذا تكتب ؟

ـ ما قاله صديقك .

طلبت القيادة من المدرب ان يصبح موجها سياسيا فرفض .
ستيف يعود بفتاة صغيرة ، شعرها اشقر ، وضعت رأسها على كتفه وأغمضت عينيها ، أقداح الجعة فارغة فوق الطاولة .
شهاب يصرخ بصوته الجموح :
ـ مس ، نريد كثيرا من الجعة .

لم تسمعه الجرسونة ، وقف وتفرس في الوجوه المحيطة ، أرسلت عيني الى مرمى عينيه ، مجموعة من الوجوه ، تتدلى على رقابها النجمة السداسية ، ينظرون نحوه ، نحونا ، توقفت الكلمات الصارخة داخل فمه ، مسح وجهه بكمة معطفه الثقيل ، لم يكن ثملا ، الموسيقى اصبحت ناعمة ، والاجساد منبطحة فوق القاعد المريحة . الراقصون يحلمون ويقبلون ، وترعى اياديهم فوق اللحم البشري الحار . تينا تقف وتتعلق برقبته . يزيحها عنه بخشونة . لم أرها تتصرف مثل هذا من قبل ، عيون النجوم السداسية تنزوي في اماكن اخرى ، شهاب يجلس ، ثم يقول :

ـ وطن ، انهم هنا ، أعرف واحدا منهم ، فقد رأيته وهو يرتدي ملابس ضابط بالجيش الاسرائيلي ، كان في مستوطنة جديدة بالجولان.

ـ شهاب دعهم في حالهم ، لا تتحرش بهم ، فهم يحترقون ، الالعاب الاولمبية ما زالت مستمرة .
ـ أنا اعرف كيف أتصرف .
دق قامته الطويلة العريضة ونادى من جديد :
ـ مس ، نريد الجعة .
سمعته الفتاة فابتسمت له وذهبت لتحضر أقداح الجعة .

اطلق نظراته نحو النجوم السداسية ، ارسل الريح عاتية ، يريد أن يسمعهم جرس البحار الآتية من هناك . الكل يعرفه جريئا لا يهاب القتال بين شفتي مدفع ، العويل صارخ ، يحمل الموت ، خفت ، تذكرت ، الخوف غباء ، المستقبل أنشودة بهتت ، القطار تحرك ، تينا تتحرك بين ذراعيه ، يجلس ليداعبها ، يهمس في اذنها كلمات ، فتصرخ ضاحكة ، وتنظر نحو الوجوه الواقفة هناك ، ترفع اصبعها ، تشير اليهم ، تنطلق كلمة واحدة من بين شفتيها :

ـ الخنازير .
يضحك شهاب ، يقهقه ، يتلوى كالملسوع ، ثم يقذف بالجعة داخل جوفه ، جان يكتب بسرعة فائقة وهو يراقب الوجوه ،ستيف يخرج لسانه ويلحس اذن الفتاة الشقراء .

جاءت فتاة فيها سمرة ارض ، أحنت راسها تجاه اذني وهمست :
ـ هل ترغب بان ترقص معي ؟

ارتبكت ، تذكرت السيدة مور ، أردت ان ارقص ، ذبحت الرغبة فشهاب على ابواب قتال . الزمن يدور بغضب في عقلي ، قلت للفتاة بكلمات حلوة :
ـ آسف يا عزيزتي ، فانا لا اجيد الرقص .
تركتني وهي تبتسم ، تخيلتها معي ، أخذها الى غرفتي ، تتاوه ، تغلق عينيها . العتمة تستلقي في المكان .
ومن جديد تقف تينا وتقول :
ـ الخنازير .
صرخت فيها :
ـ تينا . انت ثملة .

لن تؤثر الجعة على عقلي . انظر اليهم ، انهم يقفون كالخنازير .
دلق شهاب ما تبقى في قدحه ، وابعد تينا عن طريقه ، ثم تقدم بخطوات لم تكن مترنحة . الموسيقى صاخبة ، توم جونز يغني أغنية « دليلة » ، ثلاثة من الوجوه تلتحم أجسادها ، شهاب يتقدم كحصان جموح . وقف امامهم ، ارتعش القلم في يد جان . نهضت تينا وجلست قربي . الموسيقى هادئة ناعمة ، أحد الرجال فجّر الموت بنفسه وبالآخرين ، أضواء النادي باهتة ، اضواء المطار تكسرت وماتت بقع الشمس ، الليل يذوب ، الليل ذاب .

قال شهاب بهدوء ومعطفه يتعلق على كتفيه :
ـ لقد خسرتم هذه المرة . الرابحون يخسرون ايضا .
سمعت جان يقول :
ـ جملة رائعة جديدة .
أخرجت خاتمي المدبب الوجه ووضعته في اصبعي ، تينا حملت مظلتها الصغيرة ، الوجوه انقطعت عن الحديث ، هناك مباراة ، قتال ، معركة كلامية ، هناك اشياء ستاتي بعد ، شهاب يتسمر أمام النجوم السداسية كرمح قتال .
قال وهو يبتسم ابتسامة سخرية :
ـ الخنازير .
تقدم الثلاثة كجدار حجري ، تخيلت نفسي اشاهد فيلما من افلام « جيمس بوند » ، شهاب أحنى راسه ، وكور قبضتيه ، ثم اندفع كالثور وهو يصرخ بأعلى صوته : ـ وطن ، وطن .
رأيت الثلاثة يتهاوون فوق القاعد والطاولات . انبعث صراخ فتيات .
زعقت تينا :
ـ جبناء .
سمعت الاصوات تقول :
ـ عرب ، عرب ، عرب ..
وقفت . تذكرت كل الحيل التي تعلمتها من شهاب ، القتال ينتصب كدعوة امامي .
شهاب يقول من جديد :
ـ هل تريدون القتال ايها الجبناء ؟

وبسرعة خاطفة تقدم اكثر من خمسة شباب نحو شهاب ، اندلع الضرب ، ما زلت أراه مندفا فوق الارض ، قفزت من على مقعدي ، رأيت تينا تلحق بي ، ضربت واحدا منهم في وجهه ، تدفق الدم الاحمر ، صرخت الفتيات ، حملت مقعدا ، وبدأت أطوح به ، سمعت أصوات الاقداح وهي تتكسر ، رأيت تينا تستعمل مظلتها الصغيرة ، تقدم مني رجل كأنه يوناني او ايطالي ، صافحني بحرارة ، قال بلهجة عربية :

ـ أخوي .
شهاب يزأر ويصرخ ، الدم ينزف من على الوجوه ، يدي اليمنى مخضبة بالدم ، الموسيقى صامتة ، الاضواء تبهر العين ، نجمة سداسية فضية تلقى على الارض ، شهاب ما زال واقفا ، مترنحا ، لم يقع ، شهاب يقول باللغة العربية :
ـ الموج ينظف الشطئان يا وطن .
تينا تقول :
ـ انتبه يا وطن ، انه خلفك .
الاصوات تختلط كمياه نهر ، قوية ومميزة ومسموعة :
ـ اقذفوا به الى الخارج ، لن يكون له وجود في الداخل ، انه يضرب ويهدم .
هبط جسدي فوق اسفلت الشارع المبتل ، سمعت صوت ارتطام ثم احسست ببرودة منعشة ، ولامس جبيني الحار مطر الارض .

فلسطين — يوسف شرورو